# الخطوات الأولى لنشأة الفكر العلمي فى تراثنا

## للدكتور ناصر الدين الأسد

لو كانت كثرة الكتابة أو الكلام فى أمر ما نعة من معاودة الكتابة أو الكلام فيه لامتنع الناس عن الخوض فى هذا الموضوع أو ما يتصل به من موضوعات ، لكثرة ما تناوله الكتاب والخطباء والمحاضرون والمتحدّثون ، وأسرفوا فى محاولة شرحه وتوضيح جوانبه . ولكنتُ اليوم فى غِنًى عن أن أبذل جهدًا بعد جهودهم ، لا أدرى أيضيف معرفة جديدة أو يكرر ما كرّروه ، ثم لا يعدو أن يكون مقالا على مقالات سابقة يزيدها فى العدد دون أن يزيد عليها فى القيمة .

وليست كثرة الكتابة أو الكلام فى موضوع بمانعة من إعادة الكتابة أو الكلام فيه ، ولا بنافعة أحدًا من الناس ، إذا كانت مليئة بأحكام عامّة لا تعتمد على مقدّمات متسلسلة ، أو أحكام قاطعة لا تحتمل المناقشة ، أو مبهمة تكاد تشمل كل شىء ولا تشمل شيئاً محدّدًا بعينه ، أو إذا كانت بغير مقدّمات ، أو بمقدّمات تخلو من التمحيص والتدقيق ، يقفز الكاتب أو المتحدّث قفزًا إلى أحكامه النهائية ، فلا يخاطب العقل فيقنعه ، وإنما يستهوى المشاعر فيهيجها ، ثم لا تلبث هذه المشاعر أن تخبو فورتها حين تستدير الأمر مثلما اشتدّ عرامها وثارت حين استقبلته. واقتناع العقل مستمرّ ، وقد يتفاعل ، مع مرور الزمن ، فيرسخ وينمو بما يضاف إليه كلما ازداد المرءُ تفكيرًا فى الأمر الذى اقتنع به ، وحينئذ قد يتلوه ويخرج منه عمل متّزن مفيد ، وذلك ينطبق على الخاصة والعامةّ معاً ، فللعامة عقول يفكرون بها ، فيقتنعون ثم يعملون ، أو ينكرون ثم يرفضون.

وليس المجال ـ فى مثل هذه الموضوعات ـ مجال وعظ كالذى يتردّد بيننا من أكثر الأحايين . ولا مجال عراك فى غير معترك ، أو توهم دفاع بأسلحة ترتد إلى نحر المُدافِع ، فتكون أشد نكالا عليه ، لضعفها وتهافتها ، من أسلحة الأعداء . وكم من صاحب حقّ أضاعه لضعف سلاحه ، أوتهافت حجته ، أولاتّباعه سبيلا غير السبيل الموصلة إلى ما كان يريد. ولكنَّ المجال مجال بحث علميّ يلتزم الأُصول الصحيحة ، والمنهج القويم ، لتجلية الحقيقة وبيان جوانب الصواب ، بترتيب النتائج ترتيباً طبيعياً على مقدّمات متسلسلة ممحّصة ، ومخاطبة العقل مخاطبة هادئة ، عن بصيرة ومعرفة ، دون استثارة أو تهجّم أو اتهام ، لا تدعو إليها طبيعة البحث ولا تقود إلى تحقيق شىء من نتائجه ، بل قد تكون عقبات أمام الوصول إلى الهدف بما فيها من تنفير للنفوس واستهانة بالعقول .

ولم يكن كل هذا الذى أوردناه من قبيل المقدّمة أو التمهيد أو المدخل وليس هو ببعيد عن صلب الموضوع وعنوانه ، بل هو منهما فى الصميم . فذلك هو منهج علمائنا فى الحوار ، وفى المواجهة الثقافية ، وفى التواصل بين الشعوب والأديان ، استمدّوه من دينهم ومن كتابهم ،وهو أمر يلتقى مع ما نحن بسبيله من وجوه ويختلف معه من وجوه ، ومهما يكن فإن هذا الضرب من الحوار إنما هو إطار وأُسلوب : إطار يتضمن نتاج الفكر ، وأُسلوب لنقل هذا الفكر وتوصيله ، ويبقى ـ بعد ذلك ـ السؤال قائماً عن أُصول المنهج فى التفكير العلمى عند أسلافنا ، يحتاج إلى رويّة فى البحث ، ودقّة فى استخراج النتائج ، وتحديد واضح للملامح والقَسِمَات .

وحتى نتجنّب ما عددناه عيباً فى كثير من الكتابات والأحاديث ، ونتّبع ، ما ذهبنا إلى أنه النهج السليم الذى يبتعد عن التعميم الفضفاض ويلتزم بالتحديد الدقيق ، فإننا سنضع كل فكرة من أفكار هذا الموضوع فى فقرة منفصلة ، لها رقمها المستقلّ ، حتى يتقرّاها عقل القارئ فيقف عندها ممحّصاً ناقداً .

١ ـ لم ينشأ الفكر العلمى العربى الإسلامى من فراغ ، ولم يحدث فجأة بمعجزة ، ولم يتطور ويزدهر فى ميادين العلوم المختلفة ـ الأساسية والتطبيقية ـ بمعزل عن النواميس

البشرية والطبيعية التي تعمل معاً ،وفق سنّة الله في خلقه وتكون سبباً في ارتقاء الأُمم أو سقوطها . ولكنه نشأ ثم تطوّر وازدهر بفضل عاملين أساسيين ، أولهما : نصوص تربوية تعليمية ، نشّئت عليها الأجيال تتمثّل في آيات كريمة وأحاديث شريفة تكرم العقل وترفع من منزلته ، وتدعو إلى التفكير وتحض عليه ، وتشيد بالعلماء وتجعلهم ورثة الأنبياء ، وهي آيات وأحاديث أورد أكثرَها كلٌّ من تناول هذا الموضوع ، ويعرفها الناس ، أو جُلُّهم وإنْ قلَّ بينهم من يقف عندها متدبّرًا مستنبطاً منهجها المتكامل . وثانيهما : جهد بشرى موصول وتطبيق عمليّ مستمر ، نهض بهما المسلمون بدافع من السبب الأول ، وفهم صحيح له ، استطاعوا بهما أن يرسوا الأُسس الثابتة لهذا الفكر العلمي ، ويرفعوا قواعده ، ويقيموا صرحه الضخم الذى أصبح ـ قروناً متواصلة ـ كعبة للأُمم الأُخرى يحجّون إليها ، ونورًا يقبسون منه .

٢ ـ وكان من شأْن تلك النصوص التربوية التعليمية ، في كتاب الله وفي حديث رسوله ، أنها أشارت إشارات واضحة مستوفاة إلى أنه تعالى فتح جميع ميادين الحياة ، وجميع ما فوق الأرض وما في باطنها ، وما فوق البحار وما في جوفها ، وما في الفضاء والسماء . . . وجعلها كلها ميدانا للتدبير والتسخير ، في خدمة الإنسان ، يصل إليها بعقله ، ويفتح مغاليقها بعلمه ، بفضل الله، لم يحظر منها ميداناً واحدًا ، ولم يغلق فيها باباً دون باب ، بل أشرعها كلها على مصاريعها جميعاً دون قيد : ( وسخّر لكم الفلك لتجرى في البحر بأَمرهِ وسخَّر لكم الأَنهار * وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخَّر لكم الليل والنهار )[1] و(وهو الذى سخَّر البحر لتأْكلوا منه لحماً طريًّا . . )[2] و ( أَلم تر أَن الله سخَّر لكم ما في الأَرض . . )[3] و ( وسخَّر لكم ما في السمٰوات وما في الأَرض جميعاً منه ، إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون )[4] فانطلق علماءُ المسلمين « يتفكرون » و « يتدّبرون » دون ما حرج ولا تزمّت ، لا يحول بينهم وبين ميدان من ميادين العلم حائل .

(١) إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) النحل : ١٤ .
(٣) الحج : ٦٥ .
(٤) الجاثية : ١٣ .

٣ – ولم يحاسبهم تعالى على أخطائهم فى التفكير والاجتهاد والبحث ، مادامت نيّاتهم سليمة وما دام الحق رائدهم وهدفهم ، فـ « إنما الأعمال بالنيات »[١] فمنح العلماء بذلك حقاً من أهم حقوق الإنسان هو حق الخطأ غير المتعمّد ( وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمّدت قلوبكم ، وكان الله غفورًا رحيما )[٢] و ( لا يكلّفُ الله نفساً إلّا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا )[٣] ، وأكد هذا الدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صيغة تقريرية بقوله « إن الله وضع عن أُمتى الخطأ والنسيان »[٤] .

ثم زاد الإسلام على كل ذلك فضلا آخر ، فأربى على كل ما يخطر على بال العلماء وفى أمانيّهم ، فلم يقتصر على التجاوز عن خطأ المخطىء وعلى الصفح عنه – فذلك إنما يكون فى أمور العقائد والعبادات حين لا يتعمد المؤمن الخطأ – فنراه يحث العلماء على البحث والاجتهاد حثًّا ، إذ أخبرهم أنه يكتب لهم الحسنة والثواب حين يخطئون وهم سائرون فى طريق العلم فجعل المخطىء أجرًا واحدًا وللمصيب أجرين[٥] .

فكيف إذن لا يطمئن العالم على نفسه وضميره ، وكيف لا يزداد انطلاقاً فى ميادين البحث المختلفة دون ما خوف ولا تردّد .

٤ – وأطلق الإسلام العقل من أغلال الخرافات ، وحرّره من الأوهام والأساطير والأباطيل ، فجعل الظواهر الإنسانية والطبيعية سنّة من سنن الله تعالى ، تسير بنواميس ثابتة ، وتجرى بحساب دقيق ، وعلى المسلمين أن يتدبّروها ، فيغوصوا فى أعماقها ، وينقّبوا ، ويبحثوا ، ويكشفوا أسرارها وأسبابها ونتائجها. فـ ( الشّمسُ

---

( ١ ) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وأحمد .

( ٢ ) الأحزاب : ٥ .

( ٣ ) البقرة : ٢٨٦ .

( ٤ ) رواه ابن ماجه والطبرانى والحاكم.

( ٥ ) روى الحديث البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد ، قال الخطابى : « إنما يؤجر المخطىء على اجتهاده فى طلب الحق لأن اجتهاده عبادة . ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط » ( السيد سابق ، فقه السنة ٣ : ١ . ٤ – دار الكتاب العربى ، بيروت ) .

والْقَمَرُ بحُسبانٍ)[1] ( وهُو الَّذِى خَلَق الليلَ والنَّهار والشَّمس والْقَمر كلٌّ فى فَلَكٍ يسبحُونَ )[2] ( والْقَمرَ قَدَّرنَاهُ منازلَ حتَّىٰ عادكَالْعُرجُون القدِيم * لَا الشَّمس ينبغِى لَها أَنْ تُدركَ الْقَمر ولَاالليْلُ سابقُ النَّهَار وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[3] وكسفت الشمس يوم موت إبراهيم بن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم فصلُّوا وادعوا الله »[4] ( وَلَن تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا )[5] ( وَلَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً )[6] .

٥ ــ كل هذا ، وغيره كثير ، وكان الأَساس فى تنشئة أَجيال العلماء ، وتربية عقولهم ، وتوجيه نفوسهم ، فشرعوا فى بناء قاعدة العلم الإسلامى بناءً عمليا .ربطوا ــ كما أَمرهم الله ــ العلم بالعمل ، وجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح. فَهِم المسلمون ماجاء فى كتاب الله وما وصلهم عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأَنشأُوا لهم من داخل دينهم علومَهم الخاصة بهم. لم يأْخذوها من غيرهم ، ولم يترجموها عمن سبقهم : فكانت علوم الفقه ، وعلم الأُصول ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث وعلومه ، وأُصول الدين ، والسير والمغازى . وتفرعت عن كل علم علوم ، وانشقت منه فروع. وقطعوا فيها أَشواطاً بعيدة ، وارتفعوا بها إلى مستوى عال من المنهج العقلى من تحقيق وتدقيق ، ونقد للمتن وللسند ، وحرص على جمع المصادر والإحاطة بها والتثبت مما ورد فيها : كتابة أَو شفاها ، ولم يقبلوا بالتسليم برأى دون مناقشة فلا بد من أَخذ العلم مع دليله ،لابد من إقامة البرهان النقلى والبرهان العقلى. ونشأَت

---

( ١ ) الرحمن : ٥ .
( ٢ ) الأنبياء : ٣٣ .
( ٣ ) يس : ٣٩ - ٤٠ .
( ٤ ) رواه البخارى والسنن .
( ٥ ) الأحزاب : ٦٢ .
( ٦ ) فاطر : ٤٣ .

كتب الرجال ، والتفسير والحديث، والجرح والتعديل والأنساب والأخبار . وتأصلت فيهم- من علومهم- روح العلم ومفاهيمه وتقاليده وأخلاقه ، وأقبلوا على طلبه إقبالا لا نجد له نظيرًا عند الأمم الأخرى ، فيما روت لنا الأخبار. ولم يكن لهم كهنوت أو « اكليروس » يحتكر فيه الأحبار والرهبان والكهان العلم الدينىّ والدنيوى ويحظرونه على غيرهم ، فكان العلم بكل أنواعه مبذولا للمسلمين عامة وللعلماء خاصة ، من مصادره الأولى وينابيعه الصافية .

٦ – وكما شرعوا فى بناء قاعدة العلم الإسلامى بناءً عمليا من داخل دينهم وحياتهم ، بإنشاء علوم أصلية خاصة بدينهم وبهم، فقد دعموا هذه القاعدة بركن ثان أصيل من علوم لغتهم وآدابهم . فنشأ عندهم : النحو والصرف والمعانى والبديع والبيان وعلوم اللغة والعروض والقوافى ورواية الشعر والأنساب والأخبار.

وكانت هذه العلوم مع العلوم السابقة وحدة متكاملة ، مترابطة ، يحرص على تلقّيها ، أو تلقّى أكثرها ، طالبُ العلم حتى تُبْنَى قاعدته الفكرية وأصوله الثقافية . ولا نكاد نجد عالماً فى العلوم التطبيقية إلا وقد أخذ بهذه العلوم الإسلامية واللغوية والأدبية « النظرية » ، قبل أن ينتقل إلى العلم التطبيقى الذى أصبح به بعد ذلك معروفاً مشهورًا ، لأن تلك العلوم الأصيلة هى التى تربى ملكته العقلية ، وتزوّده بالمعارف الأساسية ، وتصقل موهبته فى النظر والتفكير . .

ولم ينتقل العلم عندهم إلى الانتشار فى مرحلة تالية ،إلا بعد أن رسخت أصول هذين الركنين من قاعدة العلم الإسلامى العربى.وبذلك لم يقفزوا إلى الترجمة إلا على أساس من كيان فكرى أصيل ، ووجود ثقافى متميّز ، وعلوم مستقلة نهضوا بعبئها فأهّلتهم للانتقال إلى مرحلة جديدة. ولولا هذه الأصالة العلمية لغزاهم العلم المترجم ، وطغى عليهم ، وطمس شخصيتهم . فما استطاعوا أن يطوروه ويحققوا فيه جديدا ، ولَقُضِى عليهم بأن يكونوا نقلةً مترجمين..

لقد أنشأُوا علومهم الخاصة بهم ، فتدربوا عليها وبرعوا فيها ، وتكوّن لهم منهج علمى أصيل ، فأصبحوا مستعدين عقلياً للحضارة : لتلقّيها ، وللمشاركة فيها ، ولإنشائها ، ولحملها ونقلها وتوصيلها .

٧ ـ وكما كان الإسلام ديناً عالمياً للناس كافّة ، استوعب الأديان كلّها فى رحابه ، كذلك كان هذا العلم الإسلامى العربى : اشتركت فيه الأُمم من الأجناس والأعراق والألوان المختلفة ، واشتركت فيه الأديان والمذاهب كلها ،فى إطار من روح الإسلام ، وفى أجواء عقلية متقاربة ، ومناخ علمى يكاد يكون واحداً. صهرتهم نظرة الإسلام ووسعتهم روحه ، وأصبح علم العالِم المسيحى واليهودى والصابئى رافداً يصبّ فى هذا النهر العظيم ، ويؤلف مع الأصل : العِلْمَ الإسلامى . وأصبح غيرُ العربى : أصيلا فى علوم الإسلام وعلوم العربية وشعرها ونسب العرب وأخبارهم . حتى لقد أصبح كثير منهم أئمة هذه المعارف والعلوم .

٨ ـ ومن تمام هذا المنهج الإسلامى الأصيل وقاعدته الفكرية والثقافية ذلك الأُسلوب الذى اتّبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم صحابته الأبرار وفهم آيات القرآن الكريم ودراستها ، وتطبيق ما ورد فيها على حياتهم اليومية ،بحيث لا ينتقلون إلى آية أو سورة أُخرى إلّا بعد الفراغ من فهم الآية أو السورة السابقة ،وهو أُسلوب استفاضت عنه الآثار والأخبار ، فقد قال ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزْهن حتى يعرف معانِيهُنَّ والعمل بهنّ »[1] .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلّمْنا القرآن والعمل جميعاً »[2] . وعن ميمون

---

(١) من مقدمة ابن كثير فى تفسيره ،انظر عمدة التفسير ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م ، اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر ، وانظر مسند أحمد ٥ : ١٠٤ ، المكتب الإسلامى ببيروت .

(٢) المصدر السابق .

أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – « تعلم سورة البقرة فى أربع سنين »[1] . وعن ابن عمر قال : «لقد عشت برهة من دهرى وإنَّ أحدنا يوتَى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم ، فيتعلم حلالها وحرامها ، وما ينبغى أن يقف عنده منها كما تَعلَّمون أنتم القرآن ، ثم لقد رأيت رجالا يؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأُ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدرى ما آمِرُه ، ولا زاجرُه ، وما ينبغى أن يقف عنده منه ، ويَنثُره نَثْر الدَّقَل »[2]

٩ – وبعد أن انتهى المسلمون من بناء هذه القاعدة الفكرية الثقافية بأُصولها ومناهجها من داخل أنفسهم ودينهم وعلومهم ، شرعوا فى الاتصال بعلوم الأُمم الأُخرى ، « فالحكمة ضالَّة المؤْمن يلتمسها أنَّى وجدها » . واستشعروا القوة والقدرة عليها . فأَخذوا يطلبون من يترجمها لهم ، أو يترجمونها بأَنفسهم ، إلى لغتهم ، عن تمكُّنٍ من هذه اللغة واعتزاز بها ، واقتدار عليها ، وتصرّف فيها. فأَطاعتهم اللغة ولانت لهم ، وامتدّت أمامهم تجرى معهم وتسابقهم ، فازدادت قوّة وغنى وقدرة مع الاستعمال ، وتأَصلت المعارف والعلوم الأُخرى فيهم ، وجرت فى عقولهم ونفوسهم وحياتهم مجرى علومهم الأَصيلة ، يرفِدُ كل منهما الآخر ويغذّيه ، فاستبحر الفكر العلمى عندهم واستفاض. وقد كان ذلك العلم قائماً عند تلك الأُمم الأُخرى منذ زمن طويل ، وكان بين العرب فى جاهليتهم من يعرف بعض لغاتهم ، وكان فريق منهم يتصل بهم ويطلع على ما عندهم من هذه العلوم والمعارف ، وكان المترجمون حينئذ لا يفتأُون يترجمون العلم اليونانى إلى السريانية ، وكانت له مراكزه المزدهرة فى بلاد يسكنها العرب أو يحيطون بها. ومع ذلك كله ظل هذا العلم بعيدًا عنهم ، وظلُّوا بعيدين عنه ، على معرفة أفراد منهم به ، لم يستبحر فيهم ولم يشتدّ عوده بينهم ، لأنه لم يتأصل عندهم بلغتهم .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ٤ : ١٦٤ تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٥٧ م .

(٢) الهيثمى ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١ : ١٦٥ ، دار الكتاب ببيروت ١٩٦٧ م . والدقل من التمر : أردأ أنواعه .

ولا يكاد القرن الثالث الهجرى يشرف على الانتهاء حتى نجد عددا كبيراً من الكتب فى ميادين متعددة قد ترجمت إلى العربية[1] . . ويتوالى التأليف وتتوالى معه الترجمة ، وتزخر المكتبة العربية بالكتب المؤلفة والمترجمة حتى أن فضل الله بن أبى الفخر الصقاعى ذكر[2] أن الشريف شرف الدين الناسخ ذكر له فى شهور سنة ست وستين وستمئة بدمشق قال : « وقفت فى المدرسة النظامية ببغداد . . على فهرست بما صنف فى الدولة الإسلامية فى سائر الفنون إلى آخر أيام الإمام المستنصر فى سنة تسع وثلاثين وستمئة ، والفهرست ستة وخمسون مجلداً » .

وهذه الكتب العلمية المؤلفة والمترجمة ، مع شروحها والتعليق أو الردّ عليها ، من بين هذا التراث الضخم ، هى التى أخذ الأوربيون يترجمونها إلى اللاتينية من القرن الخامس الهجرى ( خلال القرون التالية للقرن العاشر الميلادى ) وهى التى قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة بما أخذه الأوربيون عن المسلمين من مناهج البحث التى سنذكر طرفاً يسيراً من ملامحها فى الفقرات التالية ، وإن المرء ليدهش من كثرة هذه الكتب المترجمة إلى اللاتينية فى تلك القرون ، وحسبه أن يتتبع ماورد منها فى الكتب التى تناولت هذا الموضوع وأقربها كتاب المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه[3]

١٠ – وإذا كان المجال هنا لا يتّسع لتناول تفصيلات موضوع الترجمة ، والمكتبات وكثرة المؤلفات العلمية ، وجهود العلماء المسلمين فى إضافة الجديد المبتكر إلى مانقلوه عن اليونان والهنود وغيرهم ، فضلا عن تصحيح كثير من الأخطاء التى وقع فيها أصحاب تلك العلوم وخاصة اليونانيين ، فإن المجال لاشكّ متّسع للإشارة إلى هذا الطرف اليسير الذى ذكرناه قبل قليل من ملامح مناهج البحث التى طوّرها المسلمون وأبدعوا فيها ، فاستفاد منهم الأوربيون ، واقتبسوها منهم ، ونسبوها إلى بعضهم ،

---

(١) تراث الإسلام ١ : ٢٥٠ – ٢٥٣ م .
(٢) فى كتابه : تالى كتاب وفيات الأعيان ، تحقيق جاكلين سوبلة ، دمشق ١٩٧٤ م .
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى ، المكتب التجارى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

حتّى لقد جهلنا حقيقة نسبتها إلى المسلمين ،وأصبحنا لا نعرف إلا أنها من إبداع هؤلاء الأوربيين دون أن نعرف جهد العرب فى التنبه لها ، ووضع قواعدها الأولى وإرساء أصولها ، بحيث استطاع الأوربيون بعد ذلك إقامة البناء .

فمن هذه الملامح :عدم الاقتصار على قراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحة ما فيها ،وتكراره .بل لابدّ من النظر فيها بعين الفحص والتمحيص ، والتثبت من الآراء الواردة فيها حتى يستبين صوابها أو بطلانها بالحجة والبرهان . ومن أوضح مَنْ فصّل هذا الملمح الحسن بن الهيثم بقوله[1] : « الحقُّ مطلوبٌ لِذَاتِه ، وكل مطلوبٍ لذاته فليس يَعْنِى طالِبَه غيرُ وجوده ،ووجودُ الحق صعب ، والطريق إليه وعر ، والحقائق منغمسة فى الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء فى طباع جميع الناس . وما عصم الله العلماءَ من الزلل ، ولا حَمَى علمهم من التقصير والخلل . ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماءُ فى شىءٍ من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم فى شىءٍ من حقائق الأمور ، والوجود بخلاف ذلك . فطالب الحق ليس هو الناظِرَ فى كتب المتقدمين ،المسترسلَ مع طبعه فى حسن الظن بهم ، بل طالب الحق هو المتّهمُ لِظَنّه فيهم ،المتوقفُ فيما يفهمه عنهم ،المتّبعُ الحُجَّةَ والبرهان ، لا قَولَ القائل الذى هو إنسان ، المخصوص فى جبلّته بضروب الخلل والنقصان . والواجب على الناظر فى كتب العلوم ، إذا كان غرضه معرفة الحقائق ، أن يجعل نفسه خصماً لكل ما ينظر فيه ، ويجيل فكره فى متنه وفى جميع حواشيه ،ويَخْصِمُه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتّهم أيضاً نفسه عند خِصامِه فلا يتحامل عليه ولا يتسمح فيه .فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق ، وظهر ما عساه وقع فى كلامِ مَنْ تَقدَّمَهُ مِنَ التقصير والشُّبَه » .

وما قاله الحسن بن الهيثم طبّقه فى كتبه وطبقه غيره من العلماء ،والأطباء خاصة ،حين لم يكتفوا بقراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحّة ما فيها وتكراره ،

---

(١) الشكوك على بطليموس ، تحقيق الدكتور عبد الحميد صبره والدكتور نبيل الشهابى ، مطبعة دار الكتب بمصر ١٩٧١ م .

وإنّما نظروا فيها بعين الفحص والتمحيص ، ونقدوها ، وردّوا على ما يحتاج منها إلى ردّ ، وقبلوا منها ما رَجَحتْ أو ثَبَتَتْ عندهم صِحّتُه .

١١ ـ أمّا الملمح الثانى فيتمثّل فى : الاعتماد على العقل ،وعدم الانخداع بالحواس بالاعتماد عليها وحدها ،والشك فى الأمور إلى أن يقوم عليها الدليل . وهو منهج منتشر بين المسلمين ، وضّحه الجاحظ فى قوله[1] : « . . . فلا تذهب إلى ما تُريك العين ، واذهبْ إلى ما يُريك العقل . وللأمور حُكْمَان : حُكْمٌ ظاهِرٌ للحواسّ ،وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحُجَّة » .

ومن أعجب ما نصّ عليه الجاحظ ونبّهنا إليه قوله[2] ـ بعد أن أورد خبرًا من أخباره الغريبة ـ : « ولم أكتب هذا لِتُقِرَّ به ، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها . ولا يعجبنى الإقرارُ بهذا الخبر ، وكذلك لا يعجبنى الإنكار له . ولكنْ ليكن قلبك إلى إنكاره أمْيَل ، وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ ، وحالاتها الموجبة له ، لِتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له .وتعلّم الشكّ فى المشكوك فيه تَعَلُّماً ، فلو لم يكن فى ذلك إلا تَعَرُّفُ التوقُّفِ ثمّ التثبّت ،لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه . . » .

وإنى لأكاد أرى أنّ هذا الملمح الثانى :الاعتماد على العقل ، وعدم الانخداع بالحواس والشكّ ، إنما هو متّصل أوثق اتصال بالملمح الأول ، بل أراه متداخلاً فيه يكاد أن يكونا ملمحاً واحدًا لشدة اتصالهما وتداخلهما.

١٢ ـ أما الملمح الأخير الذى نرى أن نتوقّف بعده لأن مجال هذه المقالة لا يتّسع لأكثر ممااتسع له حتّى الآن ، فهو : التجربة والتحليل والاختبار . وفيه كلام طويل يحتاج إلى أن تُعْرَض فيه الحجج المختلفة والردود عليها. فقد ذهب بعضهم إلى أن « الطبّ اليونانى والعربى يمثّلان عصرًا واحدًا يتميز بتفكير متشابه جدًّا »[3] وأن هذا

(١) الحيوان ١ : ٢٠٧ تحقيق عبد السلام هارون ، مصطفى البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الأولى .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٣٤ - ٣٥ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين ، مقدمته لكتاب « الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب » ، ص : ١٥ ، ٩٨ . نشر إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

العصر هو « عصر الخبرة المنظمة عقليًا ( وليس عصر التجربة العلمية ) وهو عصر دام عشرين قرناً ، وضع أبقراط كلياته ومنهجه ، ثم فصله وفرّع عليه جالينوس ، ومارسه الرازى ، ونسّقه وأوضحه ابن سينا إيضاحاً ليس بعده مزيد ، إلى أن عرف الناس العلم التجريبي وعلم الكيمياء » . وذهب آخرون إلى نقيض ذلك فقرروا أن مرحلة العلم العربى تمتاز عن مرحلة العلم اليونانى – الذى تأثر به العلماءُ العرب أعمق التأثر – بأنها كانت مرحلة إرساء الأُصول الأُولى العلمية للاستقراء والتجربة ، وذلك بتدوين المشاهدات وتقريرها واستخلاص القواعد الكلية منها ، فى حين كانت مرحلة العلم اليونانى قائمة على وضع الكليات أوّلا ثم محاولة تطبيق الواقع عليها وهى الطريقة الاستنتاجية أو الاستنباطية . وليس من غايتنا هنا مناقشة هذه الآراء بتفاصيلها المتشعبة ، وحسبنا أن نشير إلى أن علماء العرب قد عرفوا التحليل والاستقراء والتجربة العلمية فى الحدود التى أعانتهم عليها الوسائل المتاحة حينئذ والمعارف والعلوم المستنبطة فى زمانهم ، والأدلة على ذلك كثيرة مبثوثة فى ثنايا تراثنا ، وحسبنا أن نشير إلى ماذكره الطبيب أبو بكر الرازى ( ت نحو ٣١١ هـ ) من قوله : « إنَّالمّارأينا لهذه الجواهر أفاعيل كثيرة نافعة لاتبلغ عقولُنا معرفةَ سببها الفاعِل ولاتحيطبه ، لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه وتبلغه عقولنا ، لأن فى ذلك سقوط جلّ المنافع عنا . بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهدلنا الناس به . ولا نحلّ شيئًا من ذلك عندنا محلّ الثقة ، إلابعد الامتحان والتجربة له »[1] وهوالقائل أيضا لتلاميذه : « فعليك بالأشهر مما أُجمِعَ عليه ، ودَع الشاذ ، واقتصر على ما جَرَّبْت »[2] والنصوص على ذلك من الرازى ومن غيره أكثر من أن نتصدّى لحصرها هنا .

وإنَّالنرى أنَّ هذا الملمح الثالث ، وهو التجربة والتحليل والاختبار ، مرتبط أوثق ارتباط بالملمحين السابقين ، يقود بعضها إلى بعض ، ويدل أحدها على الاخر ،

---

( ١ ) طب الرازى : ١٩ – ٢٠ .

( ٢ ) طب الرازى : ٢٤ .

في سلسلة محكمة الحلقات. ومع ذلك فإننا أوردنا ما أوردناه لنقول إن أسلافنا من هؤلاء العلماء الكبار وضعوا بذور هذه الملامح، وأرسوا أسسها الأولى ،واتّبعوها في علمهم واعتمدوا عليها.ولا يجوز أن نقول إنها اكتملت عندهم في صورتها النهائية ، ولا أن الاستقراء والتجارب العلمية تحدّدت قواعدهما واتخذا صورتيهما على النحو الذى نعرفه اليوم ، وإلا لكنّا قد حكمنا على العلم بالتوقف عند العرب ،ولحجرنا على نموه ومنعنا تطوره في الأزمان التي تلت زمن ازدهار العلوم العربية والإسلامية. وهو ما لا يجوز أن يقول به أحد ، لا عن العرب والمسلمين ولا عن غيرهم، فالعلم والتقدم الإنساني سلسلة تظلّ متّصلة الحلقات ما دام الناس وما دامت الحياة.وإنكار ما قدّمه العرب والمسلمون للعلم وللحضارة أو التهوين منه ، مخالف للحقيقة وللتاريخ كمخالفة التزيد فيما قدمه غيرهم والتهويل فيه .

**الدكتور ناصر الدين الأسد**
عضو المجمع
( الأردن )